

تاريخ قلعة رباح في الأندلس في العصر الإسلامي

دكتور

سعد عبد الله البشري

أستاذ مشارك في التاريخ الإسلامي

بقسم التاريخ بجامعة أم القرى

ملخص البحث

منذ أن نجح المسلمون في افتتاح الأندلس عمدوا إلى إنشاء الحصون والقلاع في المواقع المهمة التي تتحكم فيما جاورها من المناطق أي - إذا صح التعبير - المواقع الاستراتيجية ذات الأهمية من حيث السيطرة والتحكم . وانطلاقاً من هذا فقد بنى المسلمون عشرات الحصون والقلاع على رؤوس الجبال والأودية والممرات والمسالك ذات الأهمية العسكرية ؛ لكي تكون وسيلة لتعزيز نفوذهم السياسي والعسكري ، وكان من أهم هذه القلاع : قطعة رباح ، الواقعة بين طليطلة وقرطبة . ومن المهم الإشارة إلى أن العديد من هذه القلاع نمت وتطورت ، وازداد القاطنون حولها ؛ إذ إن الناس يشعرون بالأمان على أنفسهم ومصالحهم إذا ما كان هناك قوة تحميهم ، وأدى هذا إلى نشوء المدن حول تلك القلاع ، واكتسبت اسمها ؛ فغدت قلعة رباح مدينة ذكرها المؤرخون وأثنوا على مستواها الحضاري .

وكان لقلعة رباح نفسها أهميتها العظمى في العهود المختلفة ، سواء على عهد بني أمية الذين أدركوا دور قلعة رباح في تسكين الاضطرابات والقلاقل التي كان يشعلها الثوار في مدينة طليطلة ، أو في العهود التي أعقبت الأمويين ، فقد ازدادت أهميتها عقب سقوطها مدينة طليطلة في أيدي النصارى سنة ٤٧٨ هـ ، وكانت تمثل أحد خطوط الدفاع الرئيسة في شمال الأندلس ؛ ولهذا أسبغ عليها المرابطون والموحدون أهمية بالغة ، فسعوا إلى تحصينها ، وتقوية دفاعاتها ، وشحنها بالمقاتلين والمؤن ، وكانت بالتالي شوكة حادة في جنب النصارى ، ولما نجح هؤلاء أخيراً في الاستيلاء عليها أدركوا أهميتها ودورها الخطير ، فسلموها لأقوى جماعاتهم الدينية المحاربة ، وهي جماعة فرسان قلعة رباح ، التي كان لها شأن كبير في الحملات الصليبية على مناطق المسلمين في الأندلس في العهود التالية .

الموقع :

تقع قلعة رباح Calatrava إلى الشمال الشرقي من قرطبة ، وجنوباً من طليطلة^(١)، على وادي آنه Guadiana، وتُعد من عمل جيان Jaen^(٢) ، إلا إن وضعها الإداري تغير حسب الأوضاع السياسية وتقلباتها ، ففي عهد الطوائف الذي انتشر فيه سلك الدولة الأموية ، أصبحت قلعة رباح تابعة لمملكة طليطلة ، فلما سقطت هذه أصبح ولايتها تتردد عليها من قرطبة^(٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن اسم رباح الذي تنسب إليه هذه القلعة هو في الأغلب مأخوذ من اسم التابعي الكبير : علي بن رباح اللخمي ، الذي شارك في فتح الأندلس إلى جانب موسى بن نصير^(٤) ، وليس هذا بالمستبعد إذ نجد أن هناك حصوناً وقلاعاً سميت بأسماء بعض القادة ، أو من شارك في الفتوح من المجاهدين كقلعة حنش المنسوبة للتابعي حنش بن عبد الله الصنعاني ، وهو صاحب علي بن رباح المشار إليه . ما أطلقت أسماء قادة الفتوح على بعض

(١) ذكر ابن غالب أنها تقع غرباً من طليطلة وهو أمر مخالف للصواب. انظر فرحة الأنفس ، جزء منشور بتحقيق لطفي عبد البديع ، مجلة مهد المخطوطات العربية ، ١٩٥٥ ، ج١ ، الجزء الاول / ٢٨٩ .

(٢) الحميري . الروض المعطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط/ الثانية / ٤٦٩ .

(٣) انظر ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، ط/ الثالثة ، ج٢ / ٣٩ .

(٤) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م / ٣١٠ .

وانظر ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود مكّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٣هـ ، التعليقات / ٥٨٥ - ٥٨٦ .

المواقع ، كجبل طارق نسبة إلى طارق بن زياد ، ومدينة طريف نسبة إلى طريف ابن مالك .

ويبدو أن موقع قلعة رباح كان مغرياً للناس بالسكنى ، فاستوطنوه وعمروه ، وأصبح أهلاً بالناس ، وأضحت القلعة - كما يقول المؤرخون - مدينة حسنة^(١) ، أي أن القلعة تطورت وأصبحت ضمن مدينة آهلة بالسكان ، وخاصة بعد أن أتى الخراب على مدينة أوريط Oreto الواقعة بالقرب من طيطة^(٢) .

وقلعة رباح المذكورة يقوم في موضعها الآن حصن يعرف بقلعة رباح القديمة Castillo de calatrava la vieja ، وتقع إلى جوارها مدينة أخرى تعرف بقلعة رباح الجديدة Lanueva ، وتبع الآن المدينة المستحدثة Ciudad Real في إقليم لامانسا Lamancha ، وتبعد قلعة رباح القديمة عن المدينة المذكورة باثنى عشر كلم إلى الشمال الشرقي منها^(٣) .
ومن القبائل العربية التي نزلت في قلعة رباح قبيلة جذام اليمنية^(٤) . كما نزلها بعض الأنصار من الخزرج^(٥) .

(١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ج ٢ / ٥٨٠ - الحميري ، الروض المعطار / ٤٦٩ .

(٢) الحميري ، المصدر السابق / ٤٦٩ وص ٦٦ .

(٣) انظر ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، التعليقات / ٥٨٥ - ٥٨٦ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ ، ج ١ / ٢٦٩ .

(٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، ط / الثالثة /

٣٤٩ ، وانظر حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ط / الثانية / ٣٧٤ .

قلعة رباح في العهد الأموي :-

أ- عصر الإمارة :-

تعود نشأة قلعة رباح إلى زمن الفتح الإسلامي للأندلس ، إذا سلمنا بنسبة القلعة إلى التابعي علي بن رباح اللخمي . ويجدر بنا قبل الحديث عن تاريخ قلعة رباح في العصر الأموي أن نشير إلى أن المصادر التاريخية لم تقدمنا بمعلومات عن أحوال قلعة رباح في عصر الولاة ، رغم ما بذله الباحث من جهد في سبيل ذلك ، وهو العصر الذي بدأ منذ استقرار المسلمين في الأندلس واستمر إلى سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م ، وهي السنة التي بدأ فيها عصر الإمارة الأموية ، ولكن يمكن استنتاج أن القلعة حظيت كغيرها من القلاع والحصون باهتمام ولاة الأندلس ؛ لأهميتها في استقرار الأحوال السياسية في وسط الأندلس ، بالإضافة إلى أهميتها كقاعدة عسكرية في طريق الجيوش المنطلقة نحو شمال الأندلس والأرض الكبيرة ، وما يكون لها من دور حينذاك في عملية الإسناد والتموين ، وهو الدور الذي ستنهض به بقوة في العصور التالية كما سنوضحه. وما من شك أنها تعرضت لأعمال الزيادة والتطوير تبعاً لذلك ، حتى إذا هلَّ العهد الأموي على يد الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل ، الذي نجح في الوصول للسلطة في الأندلس على إثر انتصاره على يوسف بن عبد الرحمن الفهري في معركة المصارة سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م وقد استطاع الأمير عبد الرحمن ثم ابنه هشام ، فحفيده الحكم ، ثم عبد الرحمن ابن الحكم ، أن يسيطروا سلطانهم بقوة على الأندلس ، حتى إذا تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ / ٨٥٣م - ٨٨٦م) اندلعت

موجة من الفتن والثورات والقلاقل التي أقضت مضاجع الأمويين ، وكان من أخطرها ثورة أهل طليطلة في مستهل عهد الأمير محمد ، وفي منتصف ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م، حيث ثاروا على عامل الأمير محمد علي طليطلة، ويدعى حارث بن بزيع ، وطردوه^(١) . ولم تكد مدة الأمير محمد تنقضي حتى عم الاضطراب ، وكانت كما قال ابن حيان : (المشوب آخرها بالتنكيد ، المنصرمة عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة)^(٢) .

ولا يعنى هذا أن هذه الثورة كانت الأولى على الأمويين ، إذ إن أهالي طليطلة دأبوا منذ بداية العهد الأموي على الثورة والتمرد على الأمويين^(٣) غير أن هؤلاء كانوا من القوة بحيث يتصدون بحزم للشوار . ويهمننا في هذا الجانب ما يتعلق بتاريخ قلعة رباح ودورها في الأحداث الجارية في العهد الأموي ، إذ كان موقع قلعة رباح وأهميته الحربية في إقرار الأحوال السياسية والعسكرية في المناطق المجاورة لطليطلة ، كان له أبعد الأثر في اهتمام بني أمية بقلعة رباح وتحصينها ، وحشد القوات بها ؛ لتكون على أهبة دائمة لمدد العون لولاية طليطلة وعماهم في تلك النواحي .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود مكى / ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢) ابن حيان ، المصدر نفسه والجزء / ١٠١ .

(٣) تجدر الإشارة إلى دور النصارى في تأليب أهالي طليطلة على الحكم الأموي وقد أشار إلى ذلك

ابن حيان في المقتبس ، تحقيق محمود مكى / ٢٩٥ - ٢٩٧ .

ففي سنة (٢١٩هـ / ٨٣٤م) غزا بالصائفة الأمير أمية بن الحكم الربضي ، فهاجم طليطلة لتمرّد أهلها على الأمويين فحاصرها ، وأتلف مزارع أهلها ، غير أنه لم يتمكن من دخولها ، فعمد إلى قلعة رباح وأبقى بها قوة من الجند يقودهم أحد الفتيان الصقالبة ، ويدعى ميسرة الفتى ، ولما علم أهالي طليطلة خرجوا لقتاله ، فبلغه خبرهم ، فوضع لهم الكمائن ، ونجح ميسرة في الإيقاع بهم ، وجمعت رؤوس القتلى بين يدي ميسرة ؛ فارتاع لكثرتها ودخله الندم الشديد ، فمات بعدها بمدة يسيرة^(١) .

واستمرت مدينة طليطلة على تمردها وعنادها على عهد الأمير عبدالرحمن بن الحكم ، فقاد إليهم جيشاً لغزوهم ، وولى أحد رجاله ويدعى أبو الشماخ قلعة رباح ، وأمدّه بقوة من الخيالة لمناهضة طليطلة ، وفي العام التالي نجح الأمير عبد الرحمن في دخول طليطلة بعد حصار شديد ضاق به أهلها ، ثم اقتحمها بجنده^(٢) .

غير أن الأحوال لم تستقر في طليطلة ؛ إذ كان أهلها أكثر الناس شغباً وتمرداً على الحكم الأموي ، فما لبثوا أن عادوا إلى نهجهم في العصيان ، يدل على ذلك أنه في سنة (٢٣٩هـ / ٨٥٣م) كانت قلعة رباح قد أقفرت من أهلها ، وهدمت أسوارها ، وذلك بتأثير الهجمات التي كان يشنها عليها أهالي طليطلة باعتبارها - إن صح التعبير - قاعدة عسكرية للحكومة الأموية ، ومنها

(١) ابن عذارى . البيان المغرب ، تحقيق ج.س . كولان وليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت ، ج٢ / ٨٤ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

كان الأمويون ينطلقون لفرض سيادتهم وسلطانهم على ما جوارها ، فصار إليها الجيش الأموي في السنة المذكورة بقيادة الحكم بن عبد الرحمن فاحتلها ، وأعاد بناء أسوارها وتحصيناتها ، وبعث إلى من غادرها من أهلها للعودة إلى سكنها ، وطمانهم بنزول قوة من الجند لحمايتهم^(١) .

وكان اهتمام الأمير محمد كبيراً بتحصين قلعة رباح وتعهدا دائماً بكل أسباب القوة والمنعة ، فأمدّها في سنة (٢٤١هـ / ٨٥٥م) بالجند والحشم والفرسان ، وعيّن عليها عاملاً حارث بن بزيع^(٢) .

وفي خضم الصراع المرير بين الأمويين وأهالي طليطلة كانت قلعة رباح تتعرض لنتائج المد الأموي أو انحساره ، وكانت تمنى حسب الحالة الأخيرة بكثير من الخن والكوارث ، إذ تكرر مشهد تدمير مدينة قلعة رباح ، وإخلاء أهلها لها بسبب غارات أهل طليطلة وهجماتهم ، ففي سنة (٢٥٩هـ / ٨٧٢م) نرى الأمير محمد يأمر ببناء ما تهدم من مدينة قلعة رباح ، ويعيد إليها من نزح من أهلها^(٣) .

ومما يدل على أهمية مدينة قلعة رباح ، وتمرس أهلها على الحرب والقتال أنها كانت - هي وأوريط - تقدم من الفرسان المستنفرين لغزوات

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود مكّي / ٢٩٣ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ / ٩٤ ،

محمد عنان ، دولة الإسلام ، القاهرة ، ط/الرابعة ، ج ١ / ٢٩٢ .

(٢) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ٢ / ٩٥ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود مكّي / ٣٣٤ .

الصائفة ثلاثمائة وسبعة وثمانين فارساً ، وذلك على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط^(١) .

وكما قلنا فما كاد عهد الأمير محمد أن ينقضي حتى عمت الأندلس الفوضى ، وخاصة بعد اندلاع أخطر الثورات التي واجهها الأمويون ، وهي ثورة عمر بن حفصون ببشتر بين رندة ومالقة (٢٧١هـ/ ٨٨٤م) واستفحل شأنها حتى سيطرت على رقعة واسعة من الأندلس ، وشغلت أمراء بني أمية بعد ذلك ، حتى أخذها الأمير عبد الرحمن بن محمد . وكان كل طامع ومغامر ينتهز مثل هذه الأحوال فاقتطع كل منهم جزءاً من الأندلس ، واعتبره غنيمة له ، وكان من هؤلاء بنو ذى النون من زعماء البربر في منطقة الثغر الأوسط ، وهم الفتح ويحيى ومطرف أبناء موسى بن ذى النون الذين حكموا المناطق الواقعة في شرقي طليطلة مثل إقليش ، ووبذه ثم قلعة رباح حتى نهاية عهد الأمير عبد الله ، وأوائل عهد عبد الرحمن الناصر^(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن سوار بن حمدون القيسي زعيم العرب إبان عصر الأمير عبد الله كان في صراع مع المولدين والنصارى في المناطق الجنوبية الشرقية من الأندلس ، وامتد نفوذ سوار فاستولى على غرناطة ، وكورة البيرة جنوباً ، ثم إلى قلعة رباح شمالاً^(٣) .

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، الجزء / ٢٧٢ .

(٢) محمد عنان ، دولة الإسلام ، ج ١ ، ٣٤٠ .

(٣) محمد عنان ، المرجع نفسه ، ج ١/ ٣٢٨ .

وعلى عهد الأمير عبد الرحمن بن محمد ، وفي سنة (٣٠٠هـ / ٩١٢م) استهل الأمير عهده بالعزم على سحق الشوار في أنحاء الأندلس ، فبعث بجيش لقتال الفتح بن موسى ، وانتزاع قلعة رباح من يده ، ونجح الجيش الأموي في إلحاق الهزيمة بالفتح ، وقتل طائفة من أصحابه ، وعادت قلعة رباح إلى السيادة الأموية ، وخاصة بعد مقتل أحد كبار قادة الفتح وهو محمد بن إدريس الرباحي الذي ظفر به عامل الأمير على قلعة رباح عبد الله بن فهر فقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة^(١)

ب- عصر الخلافة :

شهدت الأندلس على عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ - ٩١٢م - ٩٦١) أقوى عصور السيادة الأموية ، إذ تمكن الخليفة عبد الرحمن الناصر (كان قد أعلن الخلافة سنة ٣١٦هـ) من سحق خصومه ، وإخماد نار الثورات في كل بقاع الأندلس ، وقد أمدنا ابن حيان بأسماء بعض ولاة قلعة رباح على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ففي سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م كان عليها شبيب بن أحمد ، وفي ربيع الآخر ٣١٨هـ / ٩٣٠م ولى عليها الخليفة عبد الرحمن ، عبد الله بن عبد الملك ، وفي سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م عزل الوالي المذكور وعين بدلاً منه محمد بن حمدون بن بسيل ، وفي العام التالي عزل ابن حمدون ، وعين مكانه عبد الملك بن عبد الله^(٢) .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر شاليتا وآخرين ، مدريد والرباط ١٩٧٩م ، ج ٥ / ٥٣-٥٤ .

(٢) المقتبس ، ج ٥ / ٢٥٤ - ٢٨٥ - ٢٣١ - ٣٥٥ على التوالي .

وفي سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٦م عُزل عدد من الوزراء والعمال ، وعيّن بدلاً منهم وزراء وعمال آخرون ، وتم عزل والي قلعة رباح عبد الملك بن عبد الله ، وعيّن عليها - مضمومة لها طليطلة - أحمد بن محمد وعبد الله ابن محمد بن مُبَشَّر ، وفي العام التالي عزل المذكوران وعيّن مكانهما عبدالعزيز ابن دُرَي (١) .

وفي سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م عزل عن قلعة رباح قاسم بن رحيق ، وعيّن مكانه هشام بن جمهور ، وفي العام التالي عين على طليطلة مضمومة لها قلعة رباح عيسى وسليمان ابنا محمد بن عيسى . وفي سنة ٣٣٠هـ / ٩١٤م عُزل المذكوران وعيّن على طليطلة وقلعة رباح إلياس بن سليمان (٢) .

ويلاحظ من خلال ما أمدنا بن ابن حيان من أسماء الولاة ، وفترات ولايتهم على قلعة رباح سرعة استبدالهم بغيرهم من الولاة ، إذ يبدو للباحث أن الأمر يعود إلى الاحتياط الأمني ، إذ قد يؤدي طول بقاء العمال على تلك النواحي إلى تكوين أشياخ وأنصار لهم قد يزينون لهم الاستقلال ، أو التمرد على الخليفة ، ويلاحظ أن قلعة رباح في بعض الأحيان كانت تحكم من قبل والي طليطلة ، أي أن بعض الولاة كانت تجمع له الولاية على طليطلة إضافة إلى قلعة رباح ، وهو ما يؤكد متانة الصلة بين المدينتين ، وأهمية قلعة رباح بالنسبة لاستقرار الأحوال في طليطلة .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٥ / ٤٢٩ .

(٢) ابن حيان ، المصدر السابق ، ج ٥ / ٤٦٢-٤٧٢-٤٨٩ .

واستمرت حالة الاستقرار السياسي والعسكري لمدينة قلعة رباح على طول عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر ، الذي حكم بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م وحتى سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م وعلى عهد الخليفة الحكم المستنصر ، وفي ٣ محرم سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤م استقبل في بلاطه بني إدريس الحسين وفي مقدمتهم الحسن بن قنون وكثير من أهل بيته ، وكان لهم في المغرب نفوذ سياسي ، فأخضعهم الحكم المستنصر ، وأذعنوا لحكمه ، وقد استقبلهم الحكم استقبالا حافلا وحضره أهل دولته ، وولاية كور الأندلس ، وكان من بينهم أهل طليطلة وقلعة رباح^(١) .

وكانت وفاة الحكم المستنصر وما ظنه النصارى من تضعضع الأحوال عقب ذلك قد دفعهم إلى التحرك لمهاجمة الثغور ، فاستنجد أهالي الثغور بالحاجب جعفر المصحفي ، وكان هو الرجل القوي في الدولة الأموية بعد وفاة الحكم المستنصر ، غير أنه ارتكب حماقة ، عندما أمر أهل قلعة رباح بقطع سدّ نهرهم آنة^(٢) ، ليحول دون تقدم الغزاة نحو قلعة رباح وغيرها من النواحي ، يقول ابن حيان (فكانت من سقطات جعفر المأثورة فأنف ابن أبي عامر من تلك الدنية ، وأشار على جعفر بتجريد الجيش للجهاد ، وخوفه سوء العاقبة في تركه ، وأجمع الوزراء على ذلك ... فنفر بالجيش ، ودخل الثغر الجوفي إلى

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥م / ٢٠١ .

(٢) وادي آنة Guadiana ينبع من شرقي الأندلس ، ويسير غربا ليصب في المحيط الأطلسي

(ابن غالب ، فرحة الأنفس / ٣٠٨) .

جليقية ، فنازل حصن الحامه من أعمال ردمير ، فدخل ربضه ، وأفضى النكاية ، وغنم وقفل ...^(١)

وضبط الحاجب المنصور بن أبي عامر الأحوال في الأندلس حتى وفاته ٣٩٢هـ / ١٠٠١م ليتولى مكانه في الحجابة ابنه عبد الملك ، وكان على نهج أبيه في الحزم والقوة حتى نهاية حياته ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م غير أن أخاه عبدالرحمن شنجول لم ينهج نهج سلفه ، فاستطال على الخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه ولاية العهد ، وبينما هو خارج للغزو سمع بأنباء الثورة عليه في قرطبة ، ففكر راجعاً ، وأقام بقلعة رباح محتاراً ، ثم عزم على دخول قرطبة فكانت نهايته على أيدي المتآمرين بقيادة محمد بن هشام المهدي في رجب (٣٩٩هـ / ١٠٠٩م)^(٢) .

وبمقتل عبد الرحمن شنجول دخلت الأندلس في طور رهيب ومروع من الفتن والحروب الأهلية التي سفكت فيها الدماء بغزارة ، وأصابت الوحدة السياسية للأندلس بضربة قاصمة ، ولسنا بصدد الحديث عما جرى من الأحداث والوقائع ، ولكن نذكر أن من بين الزعماء المغامرين الذين استغلوا حالة الفوضى والاضطراب بنو حمود العلويون من سلالة إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي أنشأ له دولة في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن الثاني

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٣٩٩هـ ، ق ٤ ، ج ١ / ٦٢ .

(٢) انظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ، ط /

الهجري ، وقد نجح هؤلاء في الوصول إلى سدة الحكم في قرطبة ، وكان أولهم على بن حمود الذي بويع له بالخلافة سنة ٤٠٧ هـ ، غير أنه لم ينعم بالأمر سوى سنة ، فقتل وتولى مكانه أخوه القاسم ، وكان هؤلاء من قادة البربر في حروبهم مع أهل قرطبة وأنصار الأمويين ، وحاول القاسم استرضاء بعض منافسيه والفتيان العامريين^(١) ومنهم زهير العامري؛ فأقطعه ولاية جيان وقلعة رباح^(٢) .

(١) الفتيان العامريون نسبة إلى المنصور بن أبي عامر ، وينتمون إلى جنس الصقلية ، وكانوا في الأصل رقيقاً من سبي الشعوب السلافية الذين يبعوا في الأندلس ، ثم توسع الأندلسيون في استعمال اسم الصقلية حتى أطلقوه على مواليتهم الذين جلبوا من أنحاء أوروبا والشمال الإسباني المسيحي ، وجاء أغلب هؤلاء الصقلية أطفالاً من الجنسين حيث رُبي الذكور منهم تربية عسكرية إسلامية ، ومن ثم أسندت إليهم الوظائف العسكرية والمدنية ولما سقطت الدولة الأموية كان الفتيان الصقلية يمثلون قوة لا يستهان بها نجحت في تأسيس بعض الإمارات في شروق الأندلس ، وكانت تجمعها رابطة تحالف ، وتسمى بالدولة العامرية والصقلية لأن أصحابها كانوا من ممالك المنصور بن أبي عامر وأبنائه وكان من كبار قادتهم مجاهد العامري صاحب دانيه وجزر البليار ، ومنهم أيضاً زهير العامري المشار إليه في المتن . انظر (أحمد مختار العبادي / في تاريخ المغرب والأندلس / ٢٧٦-٢٧٧) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ ، ج ٧/٢٨٦ ، وانظر السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ج ١/٩٥ ، محمد عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، القاهرة ، ط/ الرابعة ، ج ٢/٦٦٢ .

عصر ملوك الطوائف :

لم يتقبل أهالي قرطبة وأشبيلية حكم العلويين من بني حمود ، ومال أهل أشبيلية إلى تسليم الأمر إلى قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد الذي تقلد الحكم في أشبيلية ، ووطد سلطانه فيها (١٤١ هـ / ١٠٢٣ م) . وقد ذكر ابن خلكان أن هناك من زعم للقاضي المذكور أن الخليفة هشام المؤيد مقيم بأحد مساجد قلعة رباح ، فأرسل إليه من أحضره ، وفوض الأمر إليه ، ونصب نفسه كالوزير في خدمته ، وذلك سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، وأنه دام على هذا الحال أكثر من عشرين سنة^(١) .

وأصبحت قلعة رباح في هذا العصر تتبع سلطان بني ذي النون ملوك طليطلة . وكان من أشهر من تولى عليها لبني ذي النون حريز بن حكم بن عكاشة ، وكان والده حكم من أصحاب أبي الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقا ، وزير أبي الوليد جهور رئيس قرطبة - قبل استيلاء ابن عباد عليها- ولما قتل ابن السقاء أدخل حكم بن عكاشة السجن مع عدد أصحاب الجرائم ، بيد أنه فر من سجنه ، ولحق ببلاط بني ذي النون ، وأخلص في خدمتهم؛ فولوه بعض حصونهم القريبة من قرطبة ، وتمكن من جراءة ومفاجأة صاعقة من الاستيلاء على قرطبة ، وقتل أميرها سراج الدولة عباد بن المعتمد ابن عباد ، غير أن المعتمد مالبث أن أرسل إليه قوة قضت عليه واستردت قرطبة، ونال ابنه حريز مكانة كبيرة لدى بني ذي النون ، فولوه قلعة رباح على

(١) وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ ، ج ٥ / ٢٢ ،

وانظر محمد عنان ، دول الطوائف ، القاهرة ، ط / الثانية / ٣٧ .

عهد القادر بن ذي النون ، وقد حدث أن خرج ذات مرة فقبض عليه أهل فحص البلوط ، وساقوه إلى المعتمد فمَنَّ عليه وأطلقه ، وقد قتل حريز بعد ذلك في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، بالقرب من قلعة رباح^(١) .

وقد أورد ابن عاصم حكاية جرت لحريز هذا تدل على فروسيته وشجاعته ، وهو ينقلها عن ابن الصيرفي^(٢) الذي رواها بدوره عن الفقيه أبي مروان عبد الملك بن بونه ، وفيها يروي أن قدم على ملك قشتالة الفونسو السادس قومس^(٣) من بلاد الإفرنج أدعى أنه بحث في البلاد ، ونقب في الأصقاع عمن يثبت له في المبارزة ، فلم يجد من يماثله ، وكان الفونسو قد سمع بفروسية حريز وبسالته ، فذكره للفرانس الإفرنجي فأبدى هذا رغبته الصادقة في مبارزة حريز ابن عكاشة ، وكان بين هذا وبين الفونسو صلح ومهادنة ، فسار الفونسو على رأس قوة من جيشه إلى قلعة رباح وبصحبه الفرانس الإفرنجي ، وظن حريز أن الفونسو غدر ونقض الصلح ، غير أنه أوضح لحريز الهدف من مجيئه ، وأنه تلبية لرغبة القومس في مبارزته ؛ لما علم من فروسيته ، وكان حريز

(١) ابن الآبار ، الحلة السراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ط الأولى ، ج ٢ / ١٧٦-١٧٧ وانظر في الصفحة الأخيرة حاشية رقم ٢ .

(٢) ابن الصيرفي هو المؤرخ يحيى بن محمد الأنصاري عاش في عهد المرابطين وخدمهم وصنف في دولتهم كتاب " الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية (توفى حوالي ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) . (انظر ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٤ / ٤٧٠ هـ) .

(٣) القومس كلمة مشتقة من اللاتينية Comes وهو الكونت ، وهو الذي يُقطع منطقة وهو في مرتبة تقل عن الدوق Consul واعلى من البارون Baron . وانظر يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، القاهرة ، ط/ الثانية ، ج ١ / ١٣٤ .

آنذاك يعاني من وعكة ألمت به ، فأبدى بعض الشجعان من أصحابه رغبتهم في رغبتهم في مبارزة الفارس الإفرنجي ، غير أن هذا رفض إلا مبارزة حريز ، ولندع ابن عاصم يكمل لنا وصف القصة فيقول : (وصدر السفير بذلك إلى ابن عكاشة ، فرأى أن أصحابه قد جروا عليه ما غصّ منه ، وعزم على المبارزة وتقدم الأعلام إلى الأذفونش فركب . وركب القومس في شكته ، واستظهر بجمعه ، وهم زهاء ثلاثمائة فارس أنجاد ، وخرج حريز في آلة حربيه ، ومعه نحو المائة من أصحابه ، وانتبذ كل واحد منهم إلى البراح ، والتفت حريز إلى أصحابه مشفقاً عليهم من قتلهم وكثرة عدوهم إن أحدث في قومسهم ما يوجب حمية نفوسهم ، ثم حمل وحمل القومس ، فتجاولا والموت ثالثهما ، وطال العراك بينهما ، وأمكن الله ابن عكاشة من العليج ، فطعنه في صدره طعنة أدخلت في جوفه حلق درعه ، وأخرجت العامل وراء ظهره فخر على وجهه ، ونزل حريز فقطع معاهد مغفرة وحمل السيف على أوداجه فانحاز رأسه عن جسده ، وهم أصحابه بحريز وأصحابه ، فمنع الأذفونش من ذلك...) (١) .

وهذه القصة أوردتها المقرئ ، غير أن فيها اختلافاً واضحاً ؛ إذ يشير إلى أن حريز قدم إلى فسطاط الفونسو ، ولما أراد النزول عن فرسه ركز رمحه على باب الفسطاط ، فطلب إليه الفارس الإفرنجي المبارزة ، بيد أن حريز رفض المبارزة حتى يقتلع رمحه الذي ركزه ، وأن الفارس الإفرنجي حاول انتزاع الرمح

(١) جنة الرضا في التسليم بما قدر الله وقضى ، تحقيق صلاح جوار ، دار البشير للنشر ١٤١٠ هـ ،

من الأرض غير أنه لم يستطع ، وكرر ذلك فلم يفلح ، فطلب الفونسو من حريز اقتلاعه ، فركب حريز جواده ، وبحركة بارعة اقتلع رمحه ، مما أثار إعجاب الفونسو وأصحابه^(١) .

ولا ريب أن القصة تصور لوحة جميلة من حياة الحرب والجهاد ، وتوضح الكثير من أخلاق الفروسية بين المسلمين والنصارى ، وتحلي لنا أطوار العلاقة بين الطرفين وما ينتابها من عدااء وسلم . وكان لهذه المبارزات آداب وأخلاق ، ولعل منع الفونسو النصارى من الاعتداء على حريز في نهاية المباراة ما يشير إلى ذلك مع قدرتهم على إلحاق الضرر به ، وفي القصة دلالة على شجاعة حريز وفروسيته التي ذاعت حتى بين نصارى قشتالة ، فلم يجد ملكهم من يجاري الفارس الفرنجي سوى فارس قلعة رباح ، وقائدها الشجاع .

ومما له صلة بسيرة حريز بن عكاشة والي قلعة رباح أنه كان له كاتب يسمى عبد الحميد بن لاطون . وكان فيه غفلة وسذاجة ، فكتب ذات مرة في شأن حصن دخله النصارى إلى المأمون بن ذي النون ، يصف هول الواقعة ، وأنها من أشراط الساعة ، ثم يذكر أن الحصن دخله النصارى إن شاء الله تعالى (فلما وصل الكتاب إلى المأمون ضحك أشد الضحك ، وأرسل لحريز يوبخه على اختيار هذا الكاتب المغفل ، وما ذكره من الأوصاف والأقوال المضحكة في كتابه الدالة على بلادة ذهنه وغفلته ، فرد عليه حريز بقوله : إن

للكتاب حرمة قديمة وخدمة محمودة ، وأنه ليس لديه مملكة واسعة تستوجب انتقاء الكتاب ، والتحفظ في الجواب (وإننا نحن أحلاس ثغور ، وكتاب كتائب لا سطور)^(١).

وحدث أن سافر حريز ذات مرة ، ومعه كاتبه المذكور ، وكان وقت نزول المطر ، فكان فرس ابن لاطون عند ذنب فرس ابن عكاشة ، وفي أثناء المشي كانت تثير الطين على الأمير ، فطلب من ابن لاطون أن يتقدم ، فأبى تأدياً ، فطلب منه التأخر ، فقال : مثلي لا يزال عن ركابك في مثل هذه المواضع ، فخاطبه ابن عكاشة قائلاً : فقد والله أهلكني مما ترمي يدا فرسك عليّ من الطين ، فأجابه : " اعذرني فوالله ما علمت أن يد فرسي تصل إلى عنقك " فضحك ابن عكاشة حتى كاد يسقط عن فرسه^(٢).

وعندما تحدث ابن سعيد عن قلعة رباح ذكر أنها إحدى معاقل الأندلس ، وأن ولايتها كانوا يترددون عليها من طليطلة ، ثم لما سقطت في أيدي النصارى صار الولاية على قلعة رباح يترددون عليها من قرطبة ، وذكر من ولايتها : القائد أبو الحسن علي بن فتح الذي ساد في قلعة رباح ، وبذل غاية مجهوده في ضبط أحوالها إبان ولايته^(٣).

وكان علي بن فتح وزيراً بقرطبة أثناء الفتنة التي أعقبت سقوط الدولة العامرية^(٤).

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ / ٥٦٠-٥٦١ .

(٢) المقرئ ، نفس المرجع والصفحة .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ / ٣٩ .

(٤) الضبي ، بغية الملتبس ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧م / ٤٢٦ .

عصر المرابطين والموحدين :

كان الفونسو السادس ملك قشتالة - بعد استيلائه على طليطلة وانتزاعها من حكامها بني ذي النون ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م - قد طمع في توسيع نفوذه ، وانتزاع قواعد الأندلس ، مستغلاً تصدع الجبهة الإسلامية في عصر ملوك الطوائف ، غير أن هؤلاء سارعوا إلى طلب العون ، والمساعدة من زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، وكان هذا قد نجح في إقامة دولة قوية في بلاد المغرب ، فاستجاب المرابطون لداعي الجهاد ، وإغاثة إخوانهم في الأندلس ، فعبروا إليها ، وتمكنوا في موقعة الزلاقة من إلحاق هزيمة كبيرة بجيش النصارى في ١٢ رجب ٤٧٩هـ / أكتوبر ١٠٨٦م ، وقد أدت هذه الهزيمة التي حاقت بالفونسو السادس إلى تحطيم آماله في التوسع والهيمنة . وأدرك المرابطون بعد ذلك ضرورة القضاء على ملوك الطوائف ، وضم الأندلس تحت السيادة المرابطية ، وفعلاً قضى المرابطون على ملوك الطوائف في دخولهم الثالث للأندلس سنة ٤٨٣هـ ، ولما تمكن المرابطون من الاستيلاء على قرطبة في صفر ٤٨٤هـ / مارس ١٠٩١م ، مدوا نفوذهم إلى ما جاورها ، وبعثوا قوة تقدر بألف فارس إلى قلعة رباح قاصية بلاد المسلمين ، فدخلوها وأخضعوها لحكم المرابطين^(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن قلعة رباح أدت دوراً مهماً في الصراع العسكري بين المرابطين والنصارى ، وقد أدرك النصارى أهمية موقعها وخطورتها ، فسعوا مراراً إلى الاستيلاء عليها ، ووقعت حولها عدد من المعارك بين الطرفين ، وكان

(١) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣م ، ١٥٥ .

من أكبر القادة المسلمين الذين قادوا الحرب ضد النصارى في تلك المعارك تاشفين بن علي بن يوسف ، الذي أوقع بالنصارى بالقرب من قلعة رباح سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م وفي رمضان سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م ، بيد أن من أهم المواقع التي أحرز فيها المسلمون انتصارهم على الإسبان النصارى ما حدث في ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م ، عندما اتجه جيش من القشتاليين صوب قرطبة ، وبلغ الخبر تاشفين ، فاستعد للقائهم ، حيث التقى الفريقان بالقرب من جيان فدارت بينهما معركة شديدة انجلت عن هزيمة ساحقة للنصارى ، فقتل كثير منهم ، ووقع قائدهم وكبار رجاله في الأسر ، وغنم المسلمون غنائم وافرة ، سار بها الأمير تاشفين ، ومعه الأسرى إلى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة وانصرف إثر ذلك إلى تحصين القلعة ، وإصلاح أحوالها ، وترك الأسرى لدى أهلها ؛ ليفتدوا بهم أسراهم ، وعاد إلى غرناطة ظافراً^(١) .

ولما نجح القشتاليون في الاستيلاء على حصن أرنية - وهو من الحصون الإسلامية ويقع شرقي طليطلة - بعد أن ضيقوا على أهله الحصار وقطعوا عنهم الأقوات ، سارت حامية الحصن إلى قلعة رباح ، وهي أقرب المناطق الإسلامية للحصن المذكور ، وكان ذلك سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)^(٢) .

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، تحقيق محمد عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط/ الثانية ، ج ١ / ٤٥١ وانظر محمد عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ط/ الأولى ، ق ١٣٥ / ١ .

(٢) محمد عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ / ١٥١ وانظر يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ / ١٩١ .

في عام ٥٣٧هـ / ١١٤٢م يشير أشباخ إلى أن القشتاليين وبقيادة مونيو الفونسيز حققوا نصراً كبيراً على المرابطين ، وكان يقودهم في المعركة واليا قرطبة وأشبيلية ، وكانا من ضمن القتلى الذين سقطوا في أرض المعركة . وطمع مونيو الفونسيز في إحراز نصر آخر ؛ فسار بجيشه مرة أخرى نحو بلاد المسلمين ، بيد أن المرابطين تصدوا للنصارى وأوقعوا بهم ، وكان في مقدمة القتلى منهم قائد النصارى مونيو الفونسين ، وقد علق رؤوس كبار القادة النصارى فوق أبراج قلعة رباح^(٣) .

(٣) يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ / ١٩٣ .

سقوط قلعة رباح في أيدي القشتاليين سنة ٥٤١هـ / ١١٤٧م :

يفهم من المعلومات التي ذكرها الحميري أن الموحيدين استعادوا قلعة رباح عقب معركة الأرك^(١) ، وذلك في سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م ، وأن الموحيدين قد طهروها من عبث النصارى بعد أن بقيت في أيديهم إحدى وخمسين سنة وعشرة أشهر^(٢) ، أي أن النصارى استولوا عليها في أواخر عام ٥٤١هـ / ١١٤٧م .

وكان الذي استولى على قلعة رباح الفونسو السابع ملك قشتالة مستغلاً تدهور أحوال المرابطين في أواخر دولتهم . وكان سقوط هذه القلعة خسارة فادحة للمسلمين أضعفت خطوطهم الدفاعية ، وفتحت ثغرة مهمة في تحصيناتهم أمام المد العسكري النصراني ؛ إذ كان لها نصيب وافر في تماسك الجبهة الشمالية أمام زحف النصارى ، وهجماتهم المتكررة على بلاد المسلمين، وكان سقوطها بالتالي قد سهل تدفق هذه الموجات المتتالية من الغزوات المدمرة للنصارى باتجاه المناطق الإسلامية.

ولما تم للموحيدين إسقاط دولة المرابطين سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٧م ، سعى الموحدون إلى استعادة ما استولى عليه النصارى في أواخر العهد المرابطي

(١) معركة الأرك من المعارك الكبرى التي وقعت بين جيوش الموحيدين بقيادة الخليفة أبي يعقوب المنصور ٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م وبين جيوش قشتالة بقيادة الملك الفونسو الثامن في شعبان ٥٩١هـ - يونيو ١١٩٤م ، وذلك في سهل الأرك بالقرب من قلعة رباح ، وكان النصر حليف المسلمين وأضعفت إلى أجل محدود خطر التوسع النصراني. انظر الحميري، الروض المعطار / ٢٧ ، محمد عنان ، عصر المرابطين والموحيدين ، ق ٢/٢٠٣ وما بعدها.
(٢) الروض المعطار / ٤٦٩ .

ونجحوا في استخلاص بعض ما استولى عليه النصارى ، ومنها مدينة المريه ، ثم سعوا إلى استرداد قلعة رباح عام ٥٥٣هـ / ١١٥٨م ، وكانت قد سُلمت بعد سقوطها في أيدي النصارى إلى الجماعة الدينية المحاربة المعروفة باسم فرسان الداوية^(١) ، بيد أن هؤلاء عجزوا عن التصدي للموحدين ، ولما خافوا سقوطها في أيديهم عرضوا أمرهم على ملك قشتالة الذي أوكل الدفاع عنها إلى الراهب ريموند رئيس ديرفتيرو ، ومعه راهب يدعى دياجو بلاسكيث ، وأخذ هذان الراهبان في بث مواظهما الدينية الحماسية للدفاع عن القلعة ، فاستجاب لهما عشرون ألف مقاتل ، وأمدهم ملك قشتالة بالموث والعتاد ، ونجح هؤلاء في الدفاع عن القلعة ، وألف منهم الراهب ريموند بعد ذلك جماعة دينية محاربة عرفت بفرسان قلعة رباح ، وقد لقيت هذه الجماعة المحاربة تأييد البابا إسكندر الثالث^(٢) ، وكان لفرسان قلعة رباح دور بالغ في ساحة الحرب مع المسلمين ، وظلوا ينطلقون من هذه القلعة لتنفيذ حملاتهم التدميرية ضد المسلمين ، حتى

(١) فرسان الداوية فرع من الجماعة الدينية النصرانية المحاربة التي نشأت في بيت المقدس إبان الاحتلال الصليبي ، ويرجع تأسيس تلك الجماعة إلى سنة ١١١٨م ، عندما وضع أسسها فارس فرنسي اسمه هيود دي باينز Hugue de bayens ، وقد اختار ذلك الفارس جزءاً من هيكل سليمان ببيت المقدس ليكون مقراً لمنظّمته الحربية ، وأطلق على أتباعه اسم فرسان المعبد Templars التي حُرّفت في العربية إلى الداوية ، واتسع نشاط هؤلاء الفرسان حتى أسهموا في كل عمل عسكري قام به الصليبيون في بلاد الشام . (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١/ ٤٨٧-٤٨٨) .

(٢) يوسف أشباخ ، المرجع السابق ، ج ٢ / ٢٦٧-٢٦٨ .

تمكن الموحدون في سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م من انتزاعها مرة أخرى ، وطرد فرسان قلعة رباح منها ، ولو لفترة محدودة لا تتجاوز سبع عشرة سنة ، لتسقط نهائياً سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م عقب معركة العقاب ، والتي سوف نشير إليها لاحقاً .

وكان حاكم آبله الكونت خمينو - الذي عرف لدى المسلمين بأبي بردعة ، وأيضاً بالأحذب - كثير الغارات على بلاد المسلمين . وكان قد اخترق في إحدى غاراته قلب الأندلس نحو الجنوب ، ثم عبر نهر الوادي الكبير وذلك سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م وشن غاراته على نواحي استجه ، فتجهز المسلمون للقائه ، ولما علم بذلك تحرك بقواته واتجه شمالاً حتى عسكر بالقرب من قلعة رباح ، ولما أدرکوا عزم المسلمين على التصدي لهم لجأ النصاري إلى جبل شاهق ، فتتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم ، وألقوا بهم هزيمة شديدة سقط فيهم الكثير منهم قتلى ، وفي مقدمتهم زعيمهم الأحذب^(١) .

ولما استطال الفونسو الثامن بغزواته المتكررة على بلاد المسلمين سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م ، وبلغ سمع الخليفة الموحي يعقوب المنصور سنة ٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ / ١١٨٤م - ١١٩٨م عزم على مواجهة النصاري ، فأعد لذلك عدته ، وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م حيث التقى بجموع النصاري في موضع يعرف بالأرك بالقرب من قلعة رباح ، وفي شعبان

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٧م / ٤٢٨ وما بعدها وانظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد الكتاني وآخرين دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط/ الأولى / ١٢٥ ، محمد عنان ، عصر المرابطين والموحدين - ق ٨٧/٢ - ٨٨ .

من نفس العام خاض المسلمون معركة حاسمة مع أعدائهم ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، وسُحقت جموع الأسبان ، وفر مليكهم الفونسو الثامن ، وفي العام التالي سعى المنصور إلى قطف ثمار نصره ؛ فانتزع عدداً من المدن الأندلسية التي كانت في أيدي النصارى ، ومنها قلعة رباح التي استولى عليها الإسبان سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، ومكثت في أيديهم إحدى وخمسين سنة وعشرة أشهر ، فأمر المنصور بتطهير جامعها ، وصلى فيه ، وعيّن عليها أحد رجاله الشجعان ، وهو يوسف بن قادس^(١) .

كان تأثير هذه الهزيمة على النصارى قاسياً ومؤلماً ، وعلى الرغم من الهدنة التي عُقدت بين الطرفين واستمرت بضع سنوات ، فإن الفونسو الثامن كان يتحفز لاسترداد شيء من كرامته ، ومحو عار الهزيمة فأخذ منذ ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م يغير على بلاد المسلمين ينهب ويخرب ، مما دفع الخليفة الموحي (محمد الناصر ٥٩٥ - ٦١٠هـ / ١١٩٨ - ١٢١٣م) إلى أخذ الأهبة للتصدي لخطر النصارى . ولما تم له ذلك عبر إلى الأندلس ، وكان الفونسو الثامن قد حشد جموعاً هائلة من الجند والمقاتلين ، تصحبهم أعداد كبيرة من الصليبيين الأوربيين ، وكان الخليفة الناصر قد سار في جيشه من أشبيلية سنة ٦٠٩هـ لمقابلة النصارى ، الذين تقدموا بدورهم للقاء المسلمين ، وكان الفونسو

(١) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ٢١٨ وما بعدها ، المراكشي ، المعجب ، تحقيق : محمد سعيد ومحمد العربي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ط / السابعة / ٤٠٦ ، ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب / ٢٢٨-٢٢٩ ، الحميري ، الروض العطار / ٤٦٩ ، يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ٢ / ٣٣٧ .

الثامن قد نجح وهو في طريقه للمعركة في فرض الحصار على قلعة رباح ، وكان قائدها يوسف ابن قادس من أبطال الأندلس وشجعانها ، وكان معه في القلعة سبعون فارسا ، ورغم ذلك فقد أبدى هؤلاء بسالة في الدفاع عن القلعة ، وكان ابن قادس يبعث الرسالة تلو الرسالة إلى الخليفة الناصر يستغيثه ويطلب المدد والعون ، غير أن رسائله كان يحجبها عن الخليفة وزيره ابن جامع ، ويفسر سبب ذلك ابن أبي زرع بقوله : (فكانت كتبه إذا وصلت إلى الوزير حبسها ، ولم يطلع أمير المؤمنين عليها ؛ لئلا يقلع عن الحصن - أي حصن شلبطره ، وكان الخليفة يحاصره آنذاك قبل أن يفتحه ، وكان ذلك غشاً منه لأمر المؤمنين محمد الناصر وجميع المسلمين ، فإنه لم يكن يخبره بشيء من أخبار بلاده ولا من أمور رعيته . ويخفى عنه مهمات الأمور التي لا ينبغي أن يغفل عنها ولا يتهاون بها ...)^(١) . وعلى أية حال فإنه لما طال الحصار على ابن قادس وأصحابه وداخلهم اليأس من عون الخليفة الناصر ، ونفذت المؤن والأقوات عندهم ، وخشي أن يقتحم النصارى القلعة عنوة ، وأن يقتلوا من بها من المسلمين ؛ لهذا أثر تسليم القلعة على أن يمنح أهلها الأمان ، وقد أدرك ابن قادس خطورة العاقبة ، فإنه لم يكذب يدخل إلى معسكر الخليفة الناصر حتى سارع وزيره ابن جامع إلى القبض عليه ، وأخذ يعنفه أمام الخليفة ، ويتهمه بالتهاون والقصور ، حتى أمر الخليفة بقتله ، ومعه أحد كبار أصحابه ، وكان قتل ابن قادس - وهو

من أشهر قادة الأندلس - وما ألحقه ذلك من ألم في نفوس قادة الأندلس وجندها أحد الأسباب التي أضعفت جيش الموحدين أمام النصارى^(١) .

وكان النصارى - وخاصة الصليبيين الأوربيين - بعد استيلائهم على قلعة رباح قد طمعوا في استئصال مَنْ بقلعة رباح من المسلمين ، غير أن الفونسو منعهم من ذلك ، فغضب الكثير منهم ، وانسحبوا من جيشه^(٢) .

وكان سقوط قلعة رباح في أيدي النصارى هذه المرة هو السقوط النهائي ، إذ لم يتمكن المسلمون بعد ذلك من استردادها ، بل إن المعركة التي وقعت بعد الاستيلاء على قلعة رباح بين المسلمين والنصارى ، وهي المعركة المسماة معركة العقاب صفر ٦٠٩ هـ / يوليو ١٢١٢ م التي هزم فيها الموحدون هزيمة قاسية ، كان لها أثر بالغ في إضعاف السيادة الموحدية ، ومن ثم تكالب النصارى على مهاجمة المناطق الإسلامية ، وانتزاعها الواحدة تلو الأخرى .

ولله الأمر من قبل، ومن بعد .

(١) ابن أبي زرع ، المصدر نفسه / ٢٣٧-٢٣٩ .

(٢) المراكشي ، المعجب / ٤٥٦ .

أعلام قلعة رباح في العلوم والآداب

من الأهمية بمكان ، ونحن نتحدث عن تاريخ قلعة رباح أن نشير إلى من نبغ من أهلها في العلوم والمعارف المختلفة .

ففي علوم الدين يأتي في المقدمة أعلاهم ذكراً وشهرة ممن نسبت القلعة إليه ، وعرفت باسمه بعد ذلك ، وهو التابعي الكريم علي بن رباح اللخمي . وكان قد دخل الأندلس مع عدد من التابعين منهم : حنش بن عبد الله الصنعاني ، وأبو عبد الرحمن الحُبلي ، وموسى بن نصير ، وشارك علي بن رباح في فتح الأندلس ، ووجدت شهادته وشهادة حنش الصنعاني في عهد منبلونه^(١) (٢) .

وكان علي بن رباح من فقهاء التابعين ، وكان صاحب منزلة رفيعة في مصر ، وعده ابن الفرضي من أهل مصر ، وقد ولد سنة ١٥هـ / ٦٣٦م وشارك في شبابه في ميدان الفتح والجهاد ، وأصيبت إحدى عينيه في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م ، ولم يمنعه ذلك من مواصلة الجهاد حتى شارك في فتح الأندلس كما ذكرنا ، وكانت وفاته بأفريقية سنة ١١٤هـ /

(١) بنبلونة Pamplona مدينة في أقصى الشمال الإسباني إلى الغرب من جبال البرتات ، وهي عاصمة مملكة نبرة Navarra البشكنسيه (الحميري ، الروض المعطار / ١٠٤) .

(٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م / ٣١٠ .

٧٣٢م ، وكان له ابن يدعى موسى ، وهو من أصحاب الليث بن سعد^(١) .

وجدير بالذكر أن هناك عدداً من العلماء الذين أنجبتهم قلعة رباح ، وكان لهم اسهامات طيبة في ازدهار الدراسات الدينية من حديث وفقه وتفسير وغير ذلك من علوم الشرع ، فمنهم الفقيه مسعود بن خلصة الكلبي (ق ٤هـ) وكان من المحدثين^(٢) . وقاسم بن الشارب الرباحي (ق ٤هـ) ، وقد ترجم له ابن بشكوال ووصفه بالفقيه المحدث ، وأشار إلى أن الحافظ عبد الغني بن سعيد ذكره في كتابه : مشتهبه النسبة^(٣) .

ومن علماء قلعة رباح من ينتسب إلى الخزرج من الأنصار ، فمنهم العلامة المحدث محمد بن أحمد بن حزم ، من سلالة الصحابي محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ، وكانت وفاته سنة ٣٢٠هـ^(٤) .

ومن المحدثين أيضاً : أحمد بن محمد بن عافية الرباحي (ق ٤هـ) أخذ العلم عن أهل بلده ، ثم رحل إلى المشرق ، فلقي عدداً من العلماء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، وذكره الحافظ عبد الغني بن سعيد في كتابه مشتهبه النسبة ، وقال : سمع منا وسمعنا منه^(٤) ، ومنهم يوسف بن سليمان الرباحي (ق ٤هـ) روى عن

(١) ابن الفرضي ، المصدر نفسه / ٣١١ .

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجم ، ١٩٦٦م ، / ٣٤٩ .

(٣) الصلة ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م ، ج ٢ ، ٤٦٨ .

(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م / ٣٩ ، ابن حزم ، جهور

أنساب العرب / ٣٤١ .

(٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ / ٣٧ .

عبد الملك بن أدريس الكاتب ، وروى عنه أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن السراج^(١) .

ولعل من أبرز من أنجبت قلعة رباح : المحدث الفقيه عبد الله بن سعيد ابن أبي عون الرباحي (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م) وكانت له صلات مع علماء الأندلس ، وخاصة بعلماء طليطلة ، وقد ذكر قصة طريفة أثناء طلبه العلم على يد أحد العلماء الطليطليين ، وهو العلامة أحمد بن سعيد بن كوثر (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) إذ يذكر عبد الله أنه كان يأتي مجلس العلامة المذكور ، وكان يعقد مجلسه العلمي في منزله ، فيقول : (كنت آتي إليه من قلعة رباح وغيري من المشرق ، وكنا نيفاً على أربعين تلميذاً ، فكنا ندخل في داره في شهر نوفمبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات . والحيطان باللّود من كل حول ووسائد الصوف ، وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً ، يأخذ دفته كل من في المجلس ، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب وأيام ثرائد اللبن بالسمن والزبد ، فنأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها ، ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ... فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ، ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر ، فكان ذلك كرمًا وجوداً وفخراً لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة^(٢))

وقد استقر العلامة عبد الله بن سعيد في طليطلة ، وكانت له رحلة إلى المشرق حج فيها ، والتقى بعدد من علماء المشرق . وقد وصف في سيرته

(١) ابن بشكوال ، الصلاة ، ج١/ ٣٧ .

(٢) الحميدي ، الجذوة / ٣٦٧ .

بالورع والتقوى ورقة القلب والبكاء من خشية الله ، وكان له شرف الجهاد والمرابطة في سبيل الله ، إذ كان يربط في أحد الحصون المجاورة لطليطلة شهر رمضان من كل عام^(١).

ومن علماء قلعة رباح يوسف بن سليمان بن مروان الأنصاري الرباحي (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) رحل في شبابه إلى مدن الأندلس المختلفة ، وتجول بين مراكز العلم فيها ؛ فأتسعت معارفه ، ونال علماً واسعاً في كثير من العلوم ، وقد وصف بأنه (كان متفناً في العلوم) ماهراً في الفقه بصيراً بمسائله المختلفة . وكان مع ذلك زاهداً عفيفاً عابداً ، يؤثر العزلة وعدم الاختلاط بالناس ؛ اغتناماً لوقته لعمل الطاعات وتجنب كل ما يؤدي إلى ما يخالف ذلك^(٢).

ومن مشاهير الفقهاء أيضاً محمد بن وهب بن بكير الكتاني (ت ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م) كان عالماً بالفقه . عارفاً بالأحكام ، وبلغ في ذلك قدراً رفيعاً أهله لتولي منصب القضاء بقلعة رباح ، وكان موصوفاً بالتضحية ، والإخلاص للناس ، والعدل وطهارة النفس ، وقد أثر في آخر حياته الخروج إلى طليطلة فاستوطنها وبها توفي^(٣).

وإذا كان العلامة المذكور قد تولى القضاء بقلعة رباح فقد كان له ابن يدعى يوسف (ت ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) أخذ عنه العلوم ، وعن عدد من علماء

(١) ابن بشكوال ، الصلاة ، ج ١ / ٢٦٨-٢٦٩ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلاة ، ج ٢ / ٧٧٦ - ٧٧٧ .

(٣) ابن بشكوال ، الصلاة ، ج ٢ / ٥٤٣ .

الأندلس والمشرق ، وشهر بالمعرفة والذكاء في الفقه والحديث والفرائض ، وتولى مثل والده قضاء قلعة رباح ، وقد وصف بالعدل وحسن السيرة والهيئة^(١) .

ويلاحظ أن الكثير من علماء قلعة رباح استوطنوا مدينة طليطلة وآثروا قضاء بقية حياتهم بها ، وهو أمر طبيعي ؛ إذ تعتبر أقرب المدن الأندلسية لقلعة رباح ، وبالتالي ترتب عليه قوة الصلات العلمية والثقافية بين المدينتين ، وهو أمر يتضح من خلال سير من ذكرنا من العلماء ، وهذا العلامة نجدة بن سليم بن نجد الفهري الضيرير من أهل قلعة رباح (ت بعد ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) أخذ العلم عن عدد من العلماء ، ومنهم من أهل طليطلة ، ثم استوطنها وتصدر بها لإقراء القرآن ، وتعليم اللغة العربية وآدابها^(٢) .

وإذا جئنا للحديث عن العلوم الأخرى ومنها : ميدان اللغة وما يتصل بها من أدب وشعر ، يأتي في مقدمتهم العلامة الأديب المتفنن أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد السلام الأزدي (ت ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) ، وهو من سلالة القائد الكبير المهلب بن أبي صفرة ، وكانت مدينة جيان^(٣) Jaen منزل أجداده في الأندلس ، ثم ارتحل أبوه أو جده إلى قلعة رباح ، فنزلها واستوطنها ،

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ / ٦٨٠-٦٨١ .

(٢) ابن الأبار ، التكملة ، نشر وتصحيح عزة العطار ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، ج ٢ / ٧٥٧-٧٥٨ ، وانظر ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ / ٢٣٢-٢٣٣ .

(٣) مدينة جيان تقع في الجنوب الشرقي من الأندلس ، وكانت من أشهر مدن الأندلس وأكثرها عمراناً وزراعة (انظر الحميري ، الروض المعطار / ١٨٣) .

ومن ثم نسب إليها ، وقد نشأ نشأة علمية ، وانصرف إلى دراسة علوم العربية حتى حذقها ، وكان يملك إلى جانب سعة علمه براعة في التحليل والنظر والاستنباط ، وكان من الطبيعي أن لا يكتفي بما ناله من علم في بلده ، فشدَّ رحاله إلى المشرق ، حيث التقى بكبار علمائه ، ومنهم العلامة أبو جعفر النحاس فحمل عنه كتاب سيبويه^(١) . كما التقى الأديب اللغوي علي بن الحسن المعروف بعلان ، فلأزمه وناظره في كثير من مسائل العلم ، وقد وصفه بدقة النظر وجودة القياس^(٢) . كما أخذ في مصر عن أحمد بن محمد بن ولاد ، وسمع بمكة من محمد بن زياد الأعرابي^(٣) .

وفي عودته إلى الأندلس نزل قرطبة ، وأخذ في إلقاء دروسه ، فأنجفل إليه طلبة العلم يقتبسون من علمه ، وصفه الزبيدي بقوله : (لم يكن ظاهره ينبئ عن كثير علم ، فإذا فوتش ونوظر لم يصطل بناره ، ولم يشق أحد غباره . وكان قد طالع كتب أهل الكلام وتفنن فيها ، ونظر في المنطقيات فأحكمها ، إلا

(١) سيبويه هو عمرو بن عثمان بن قنبر من أشهر النحاة وكان من تلاميذ الخليل بن أحمد اللغوي البارز ، وقد صنف في النحو كتاباً عرف بالكتاب ، لقى عناية بالغة من النحاة (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م) (انظر القفطي ، إنباه الرواة ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط/ الأولى ، ج ٢/ ٣٤٦) .

(٢) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/ الثالثة / ٣١٠ وانظر ١٢٢ .

(٣) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ق ٢ / ٦٩ .

أنه لا يتقلد مذهباً من مذاهب المتكلمين ... ولو أنه تناول الباطل البحت وانجال الخوض لما استطاع صرفه عنه ولا قطع حجته فيه ، ولربما ناظر أهل الفقه على مذهب الاحتجاج والتعليل ، وأهل الطب والتنجيم في دقائق معانيهم ولطائف مسائلهم مناظرة من غني الدهر الطويل بعلمهم وشغل نفسه بمداينة كتبه ، فيقطعهم ويستشرف عليهم ؛ وذلك للطف حسه وصحة خاطره وحذقه بأعمال القياس على أصله^(١)

ولعل من أهم ما أسداه هذا العلامة للمعرفة في الأندلس ترسيخ الاهتمام بعلوم اللغة العربية والإحاطة الشاملة بفنونها ، واستيفاء حدودها ، إذ كان أهل الأندلس قبله ممن كان له عناية بالنحو واللغة ومنهم المؤدبون ، إنما كانوا يلقبون تلاميذهم العوامل ، وما شاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يمتد اهتمامهم وعنايتهم إلى الإحاطة بدقائق العربية واستقصاء مسائلها ووجوهها المختلفة ، فلما قدم عليهم الرباحي سعى إلى وضع نهج جديد في دراسة علوم العربية يتسم بالإحاطة والدقة والاستيفاء والتعليل^(٢) .

ونظراً لما كان للرباحي من علم واسع ، ونظر ثاقب إلى جانب ما كان عليه من خلق كريم واستقامة ؛ فقد قربته الخلفاء الأمويون إليهم ، فاستأدبه الخليفة الناصر لولده المغيرة ، ثم التحق بعد ذلك بخدمة الخليفة العالم المستنصر ، حيث عمل لديه في مقابلة الدواوين ، والنظر فيها^(٣) .

(١) طبقات النحويين واللغويين / ٣١٠ .

(٢) الزبيدي ، نفس المصدر / ٣١١ وما بعدها ، وانظر القفطي ، إنباه الرواة ، ج ٣ / ٣٢٩ .

(٣) الزبيدي ، المصدر السابق ، ٣١٤ وانظر في الصفحة نفسها وما قبلها نماذج من شعره إذ وصف بقرض الشعر وجودة الفطنة في استخراج المعنى .

وكان أهل الأندلس يفاخرون به ، ويعدونه من مفاخر بلدهم ، فقد أشار إليه العلامة ابن حزم الظاهري ، وذكره في رسالته التي ألفها في فضل الأندلس وذكر رجالها ، وأشار فيها إلى أن محمد بن يحيى الرباحي لا يقصر عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد^(١) .

ويشير الحميدي إلى أحد أدباء قلعة رباح ، ويدعى محمد بن سعد الرباحي ، ومن الغريب أنه يشبه الأديب السابق في كونه أصلاً من جيان ، وأنه شهر بالمعرفة في اللغة والشعر ، بيد أنه سكن قلعة رباح ولم يشر إلى انتقاله منها إلى سواها^(٢) .

وكان من أبرز شعراء قلعة رباح أبو تمام غالب بن رباح ، المعروف بالحجام (ق ٥٥ هـ) وقد وصفه الحجاري في المسهب بقوله : (شاعر القلعة الذي نوه بقدرها ورفع من رأس فخرها ، لا أحاشي حديثاً ولا قديماً ، ولا أخص لنيما ولا كريماً)^(٣) .

مع ذلك فقد عده ابن بسام متخلفاً في شعره (لأن طبعه كان ينبو عن السهل ، ولا يلحق بالفصيح الجزل ، وربما ندرت له أبيات في النظام ، كريمة من غير رام)^(٤) .

(١) انظر المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٣ / ١٧٨ .

(٢) جذوة المقتبس / ٥٩ .

(٣) ابن معيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ / ٤٠ - ٤١ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ٣ ، ج ٢ / ٨٢١ .

ويلاحظ أن حكم ابن بسام - في رأيي - حكم قاس ، لأن ما يطالع
أشعار أبي تمام المذكور يشهد له بالإجادة - ولو في قسم منه - وقد أورد له
ابن بسام جملة من شعره في أوصاف مختلفة ، منها نظمه في تمثال امرأة مع
وليدها رآه في أشيلية :

ودمية مرمر تزهى بخد	تناهى في التودد واليباض
ها ولد ، ولم تعرف حليلاً	ولا ألت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ، ولكن	تتيمنا بألحاظ مراض

وقال في ثريا المسجد الجامع :

تحكي الثريا في تألقها	وقد لواها نسيم ، وهي تنقد
كأنها لذوي الإيمان أفندة	من التخشع جوف الليل ترتعد

وفي وصف صديق :

لي صاحب لا كان من صاحب	فإنه في كبدي جرحه
يحكي إذا أبصر لي زلة	ذبابة تضرب في قرحه ^(١)

ومن استوطن قلعة رباح من مشاهير أهل اللغة والأدب على بن محمد
ابن السيد النحوي البطليوسي (ت ٤٨٠هـ) وهو أخو الأديب المشهور عبد الله
ابن محمد بن السيد (ت ٥١٢هـ / ١١٢٧م) ذو المؤلفات المعروفة مثل
(الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) و (التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف
الأمم) ، وكتاب (الحدائق)^(٢) ، وكان الأديب علي بن محمد أول شيوخ أخيه

(١) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ٢/٨٢٦ - ٨٣٠ - ٨٣٩ ، وانظر أيضا ابن سعيد ، رايات المبرزين ،

تحقيق النعمان عبد المتعال ، مطابع الأهرام ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ٨٢ - ٨٣ .

(٢) انظر ترجمة لدى ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١/٢٩٢ .

عبد الله في العلم واكتساب المعرفة ، ولا عجب في ذلك فقد كان موصوفاً بسعة العلم في اللغة وحفظها ، غزير المعرفة في فنون الأدب^(١) ، ويبدو أنه التحق بخدمة حريز بن عكاشة وإلى قلعة رباح ، ثم ما لبث أن قبض عليه هذا متهماً إياه بمداخلة المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس وإغرائه بالاستيلاء على قلعة رباح ، وحُبس الأديب على بن محمد في بيت ضيق ، وكان يُعطى في اليوم رغيفاً لا شيء معه حتى ضعف وهلك^(٢) .

وجدير بالذكر ونحن نتحدث عن الأدب وفنونه أن نشير إلى أن حريز ابن عكاشة المتقدم الذكر ، والذي كان أحد ولادة قلعة رباح في عصر ملوك الطوائف كان بارزاً أيضاً في نظم الشعر ، وقد أورد له ابن خاقان وابن الأبار أبياتاً من شعره^(٣) .

كما أن أبا الحسن بن فتح ، وهو أحد ولاتها ، كان ينظم الشعر ويجيده ، وقد أورد له ابن سعيد نماذج من شعره ، ومنها قوله :

حنقاً أصابتنا المواضي والليب لها غدير
فبطول ما أتعبتها مهما أبارز أو أغير^(٤)

(١) بن بشكوال ، الصلة ، ج ٢/ ٤٢٢ ، القفطي ، انباه الرواه ، ج ٧/ ٣٠٧ ، ياقوت ، معجم الادباء ، دار افكر ، ط/ الثالثة ، ج ١٥/ ٥٦ .

(٢) انظر ابن الابار ، الحلة السراء ، ج ٢/ ١٧٧-١٧٨ .

(٣) انظر مطمح الأنفس ، تحقيق محمد شوابكه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/ الأولى / ٢٢١-٢٢٢ ، الحلة السراء ، ج ٢/ ١٧٩ .

(٤) المغرب في حلي المغرب ، ج ٢/ ٤٠ .

وفي الطب والفلك لا بد من الإشارة إلى العلامة محمد بن يحيى بن عبد السلام الذي سبقت الإشارة إليه في ميدان اللغة والأدب ، فقد كان من العلماء الموسوعيين الذين تفتنوا في علوم مختلفة ، ومنها الطب والفلك وعلم الكلام ، ويذكر الزبيدي ، وهو أحد أصحابه ، أنه كان يناظر أهل الطب والتنجيم في دقائق معانيهم وفنونهم ، فيقطعهم ويتفوق عليهم ؛ جلده في دراسة تلك العلوم ، واعتنائه بها ، إضافة إلى ذكائه وفطنته وبراعته في المناظرة^(١) .

وكان أبو الحسن رباح بن أبي القاسم بن عمر الرباحي من أصحاب العلوم والمعارف المختلفة ، وكان بارعاً في الطب ، وقد أثنى عليه السلفي ، وأورد أسماء بعض شيوخه الذين تلقى على أيديهم العلم^(٢) .

(١) طبقات النحويين واللغويين ، ٣١٠ .

(٢) إحسان عباس ، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، تحقيق إحسان

عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط/ الثانية / ٣٩-٤٠ .

الخاتمة

وختاماً فإن ما نخلص إليه من هذا البحث المتواضع عن قلعة رباح التي أصبحت بعد ذلك مدينة من مدائن الأندلس أن هذه المدينة كان لها دور بالغ الأهمية في جميع أطوار التاريخ الأندلسي ، وذلك منذ أن أنشأها المسلمون في موضعها الاستراتيجي - إن صح التعبير - لتكون قاعدة من قواعد الفتح الإسلامي ، أو فيما أعقب ذلك إبان الإمارة الأموية عندما رأى فيها الأمويون قاعدة عسكرية لها تأثيرها الكبير في إقرار الأحوال السياسية والعسكرية في المناطق الواقعة شمال قرطبة وجنوب طليطلة ، وإخماد ثورات أهلها ، تلك الثورات التي استمرت مندلعة حتى سيطر الخليفة عبد الرحمن الناصر على أوضاع الأندلس سيطرة تامة ، وقضى على الثوار والمغامرين في أطرافها المختلفة، وظلت القلعة ثغراً من ثغور الإسلام ، وكلما سقطت طليطلة في يد النصارى أصبحت قلعة رباح من خطوط الدفاع الرئيسة أمام الزحف النصراني، واكتسبت أهمية بالغة في عصر المرابطين والموحدين ، ونالت اهتمامهم وعنايتهم ؛ لما كان لها من عظيم الأثر في صمود الجبهة الإسلامية شمال الأندلس، وظلت القلعة ثغراً من ثغور الإسلام ، ولما سقطت طليطلة في يد النصارى أصبحت قلعة رباح تؤدي دورها التاريخي في ميدان الجهاد وفي ميادين الحضارة الإسلامية - كما أئحنا إليه عند الإشارة إلى من نبغ من أهلها في العلوم والمعارف - حتى سقوطها في أيدي النصارى نهائياً سنة ٦٠٩ هـ ، ونرجو أن نكون قد أسهمنا ولو باليسير في توضيح ذلك الدور الذي لعبته قلعة رباح ، وألقينا الضوء على تاريخها في العصر الإسلامي .

والله المستعان

ثبت المصادر والمراجع

- ابن الأبار ، محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)

١- التكملة لكتاب الصلة، نشره وصححه السيد عزت العطار،

مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

٢- الحلة السراء ، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية
للطباعة والنشر ، ط الأولى .

- ابن الأثير ، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ)

الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م ،

- الإدريسي ، محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ،
القاهرة ، (بدون تاريخ طبع) .

- ابن بسام . علي بن بسام (ت ٥٤٣هـ)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ،
دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

- ابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)

الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .

- ابن حزم ، علي بن أحمد (ت ٤٦٥ هـ)
جوهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، ط الثالثة .
- الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)
معجم الأدباء ، دار الفكر ، ط الثالثة ، ١٤٠٠ هـ .
- الحميدي . محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨ هـ)
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧ هـ)
الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط الثانية ، ١٩٨٠ م .
- ابن حيان ، حيان بن خلف (ت ٤٦٩ هـ)
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، جزء بتحقيق محمود مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- المقتبس ، جزء بتحقيق عبد الرحمن الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
- المقتبس ، الجزء الخامس ، نشر شاليتا وآخرين ، المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدير ، وكلية الآداب بالرباط ، ١٩٧٩ م .
- ابن خاقان ، الفتح بن محمد (ت ٥٢٩ هـ)
مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، تحقيق محمد علي شوابكه ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ، ١٤٠٣ هـ .

- ابن الخطيب ، لسان الدين (ت ٧٦٦هـ)

١- الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ج ١ ، ط الثانية ، والأجزاء الأخرى ، ط الأولى .

٢- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ، ط الثانية .

- ابن خلكان ، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ٥ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، طبعة ١٣٩٧هـ .

- الزبيدي ، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبي الفضل ، دار المعارف ، ط الثالثة .

- ابن أبي زرع ، علي بن عبد الله (ت ٧٤١هـ)

الأنيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ م .

- ابن سعيد ، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)

- رايات البرزين وغايات التميزين ، تحقيق النعمان عبد المتعال ،
لجنة إحياء التراث الإسلامي ، مطابع الأهرام ، القاهرة ،
١٣٩٣ هـ .

- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ،
القاهرة ، ط الثالثة .

- ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد (ت ٥٩٤ هـ)

المن بالإمانة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار المغرب الإسلامي ،
بيروت ١٩٨٧ م .

- الضبي ، أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩ هـ) أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩ هـ)

بغية الملتبس ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ م .

- ابن عاصم ، محمد بن عاصم (ت ٨٥٧ هـ)

جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى ، تحقيق صلاح جرار ،
دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

- ابن عذارى ، أبو عبد الله محمد (ت ٨ هـ)

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، تحقيق ج.س
كولان ولفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، الجزء الخاص
بالموحدنين ، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني وآخرين ، دار الثقافة ،
الدار البيضاء ، ط الأولى .

- ابن غالب ، محمد بن أيوب (ق ٦ هـ)
فرحة الأنفس جزء منشور بتحقيق لطفي عبد البديع مجلة معهد
المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، المجلد الأول ، الجزء
الأول .
- ابن الفرضي ، عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ)
تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
- القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٢٤ هـ)
إنباه الرواة على أبناء النحاة . تحقيق : أبي الفضل إبراهيم ، دار
الفكر العربي ، القاهرة ، ط الأولى .
- المراكشي ، عبد الواحد (ت ٦٤٧ هـ)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تصحيح وتعليق محمد سعيد
ومحمد العربي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ط السابعة .
- المقرئ ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار صادر ، بيروت
١٣٨٨ هـ .

المراجع

- إحسان عباس ، أخبار وتراجم أندلسية ، مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة ، بيروت .
- حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ط الثانية.
- السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دار النهضة ، ١٩٧١ م .
- محمد عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الاول ، القسم الأول والثاني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط الرابعة .
- دول الطوائف ، مكتبة الخانجي ، ط الثانية .
- عصر المرابطين والموحدين ، القسم الأول والثاني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط الأولى .
- يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط / الثانية ، ١٣٥٩ هـ .